النـــائمـــون !

يوسف أبو الفوز

بعيدا عن صحة الاتهام الموجه إلى مواطن عراقي، أميركي الجنسية، اعتقلته السلطات الأميركية في مدينة شيكاغو في الأيام الأخيرة، ويقال إن مخابرات النظام الديكتاتوري المقبور أرسلته للاندماج في الحياة الأميركية ك (عميل نائم) (فالخبر بحد ذاته يثير الكثير من التداعيات والأسئلة، ومن بينها سؤال يرتسم بعلامة استفهام كبيرة، وهو : كم هو يا ترى يبلغ عدد من يمكن تسميتهم بـ"العملاء النائمين) بين أوساط أبناء العراق الذين رفضوا سياسات النظام الديكتاتوري واضطروا لترك بلادهم والعيش في المنافي المختلفة ؟؟

حين سقط النظام الديكتاتوري استبشر أبناء العراق خيرا، وانقشعت سحب الخوف عن ملايين العراقيين، داخل وخارج العراق. أبناء العراق في المنافي، الذين ولسنين طويلة، ارتضوا حياة الغربة بكل مصاعبها، حاملين معهم حبهم الدائم لوطنهم وشعبهم، وحقدهم على النظام الديكتاتوري البغيض، كان البعض منهم يعيش رعبا حقيقيا من ارتكاب خطأ ما كالمشاركة في تظاهرة أو حضور ندوة للمعارضة العراقية. و لفترات طويلة كان التقاط الصور محرما في بعض النشاطات العامة، لان كتاب التقارير وعملاء السفارات، والعملاء النائمين والصاحين، سيسجلون كل ذلك ويستخدمونه في إثبات الولاء لسيدهم الديكتاتور ونظامه الفاشي، وسرعان ما يدفع الأهل الأبرياء داخل العراق وبأكثر من شكل ثمن النشاط السياسي للابن. وهناك الكثير من القصص التي دفع فيها الأهالي ثمنا باهظاً نتيجة نشاط العملاء والمندسين بين صفوف العراقيين. وبعد زوال النظام راح الكثير من العراقيين يتنفسون الصعداء، واستبشروا خيرا، وراحوا يقفون بثقة أمام عدسات التصوير ليلتقطوا الصور التذكارية غير هيابين ان تصل صورهم إلى الأجهزة الأمنية ليدفع أهاليهم ثمن حضورهم ندوة لهذا الحزب المعارض أو امسية شعرية لشاعر يعادي سياسة النظام الفاشي. وصار أبناء العراق يشعرون بفرح غامر وهم يطالعون كل يوم كتابات لعشرات الأسماء من الكتاب والأكاديميين، التي لم تكن معروفة سابقا، والذين صاروا الان يكتبون وجهات نظرهم في كل مكان، وبدون خوف، في مختلف الشؤون السياسية والاجتماعية والعلمية، غير شاعرين بالخوف من أجهزة النظام المخابراتية وعيون السفارات من (العملاء النائمين)، وبنفس الوقت رفع الكثير من الاخوة الكتاب الستار عن أسمائهم الصريحة، حيث اضطروا ولسنوات للكتابة تحت ستار أسماء مستعارة خوفا من إرهاب وعسف أجهزة النظام الفاشي وكل أبناء العراق، وحكومتنا المؤقتة، ووزارة الخارجية خصوصا، يدركون ان سفارات العراق لم تكن بعثات دبلوماسية بقدر ما كانت أوكارا لرجال المخابرات، وكانت إحدى مهامها الاساسية متابعة ابناء العراق في المنافي وإرهابهم باكثر من وسيلة، وكانت سفارات النظام الديكتاتوري تعتمد الاغراءات ومختلف الأساليب الدنيئة لتشتري بواسطتها العملاء وتجندهم لأغراضها، سواء من بين البعض من ضعاف النفوس من العراقيين، أو من أبناء الجاليات العربية ممن ارتضوا العمل كمرتزقة أو حتى المخدوعين بديماغوجية نظام العفالقة. والسؤال الذي يمكن ان يرد في البال الان : اين اختفى كل هؤلاء الذين كانوا يرصدونا ليل نهار ويفتعلون الف سبب للاحتكاك بأبناء العراق الشرفاء لمعرفة معلومات عنهم وعن عوائلهم ليسهل من خلال استثمارها للضغط عليهم واخافتهم واسكاتهم ؟ الجميع يعرف، واول ذلك وزارة الخارجية والمسؤولون فيها، ان هؤلاء العملاء مازالوا يعيشون بين أبناء الجالية العراقية، ولكن بعضهم وبخفة ارتدى ثياب الديمقراطية وصار يتحدث بلغة الضحايا، متوهما ان عيون أبناء الشعب العراقي غافية وغافلة عنه. ان وزارة خارجية العراقية مطالبة واستنادا إلى الوثائق الموجودة في السفارات العراقية . ان لم تتلف من قبل رجال النظام . أو استنادا إلى وثائق وزارة الخارجية ان تكشف للعراقيين أسماء العملاء المندسين والنائمين بينهم، والذين ربما يشعرون الان بالهدوء وعدم الخوف من ملاحقة قانونية ما، ويحلمون بالعودة من جديد بانقلاب ديمقراطي عبر صناديق الانتخابات لبناء جمهورية البعث الثالثة، وليرفعوا رؤوسهم عاليا، مادين ألسنتهم ساخرين منا، ليتبين بأننا نحن الذين كنا نياماً وغافلين!

الصحة النفسية للطفولة العراقية بين الواقع والمتطلبات

د. كاظم المقدادي*

ورثت الطفولة العراقية ، شأنها شأن بقية شرائح المجتمع العراقي الضعيفة ، تركة ثقيلة ورهيبة ، خلفها نظام البعث العراقي المقبور ، يتوقع المختصون ان تمتد تداعياتها الخطيرة لسنوات طويلة ، وكانت حصيلة حتمية لنهج الإضطهاد والإرهاب والقمع الدموي ، ولسياسات الطاغية الهوجاء ، ولحروبه العبثية ، الداخلية منها والخارجية ، التي لم تثمر للبلد سوى الدمار والخراب ، ولمواطنيه غير الفقر ، والبؤس ، والحرمان ، والمرض ، والموت ، ولمن بقي حياً من براعم حاضر الشعب ومستقبله التشرد ، والضياع ، وكم هائل من الإضطرابات والأمراض النفسية والعقلية .لمناسبة الندوة العلمية التي تنظمها وزارة الصحة بالتعاون مع الهيئة الوطنية للصحة النفسية إحتفاء باليوم العالمي للصحة النفسية- العاشر من تشرين الأول / نسلط الضوء على واقع الصحة النفسية للطفولة العراقية ومتطلبات معالجتها.

١-٢

تركة ثقيلة وخطيرة

كان من أبرز "بركات" نظام صدام حسين هو إنتاجه لأزمات خانقة متواصلة، وفي مقدمتها الأزمات الإقتصادية-الإجتماعية،التي طالت إنعكاساتها عموم شرائح المجتمع العراقي، وشكلت الضغوط النفسية من بينها هماً يومياً- بإعتراف المصادر الرسمية، حيث إزدادت من ٢٤,٨ ٪ قبل عام ١٩٨٩ الى ٦٢ ٪ في عام ,٢٠٠٢ وأكدت تقارير دولية، نشرت عشية سقوط نظام صدام حسين، وجود ٥ ملايين و ٣٠٠ ألف طفلاً يتيماً، وقرابة ٩٠٠ ألف من ذوي الإحتياجات الخاصة، من المعاقين جسدياً وعقلياً، وأكثر من مليون ونصف المليون أرملة، عدا مئات الآلاف من المطلقات. وكانت أغلب تلك النساء يقمن بإعالة فلذات أكبادهن، الذين شكلوا نحو ٧ ملايين طفل، وجميع هؤلاء يعيشون بمستوى مادي جد متردٍ ودون الحد الأدني للمستوي المعيشي. ولم تتوفر لتلك الأسر موارد مالية منتظمة، ولا برامج محددة وثابتة لإعانتها ورفع مستواها المعيشي. حيال هذا إضطرت وزارة العمل والشؤون الإجتماعية في الحكومة العراقية المؤقتة الى إدراج نحو ٣٠٠ ألف عائلة محتاجة جدا للحصول علي اعانات من الدولة، في ميزانيتها للعام ٢٠٠٣/ ..٢٠٠٤

أما حروب الطغمة الحاكمة، فقد خلفت تأثيرات خطيرة على حياة الأطفال، وصحتهم، ونفسيتهم، وسلوكيتهم. ذلك لأن التعرض، خاصة طويل الأمد، للصدمات والقلق والضغط من جراء الحرب، يترك بصماته على البناء النفسي، وأحياناً الجسدي، للطفل.فالحرب- بحسب د. فيوليت داغر- لا تهدف فحسب بتشويه الجسد، وإنما الطاقات العقلية والنفسية للآخر.ومصادر النظام السابق نفسها كشفت، في مطلع عام ١٩٩٥، فقدان ١٢,٩ ٪ من مجموع الاطفال العراقيين لآبائهم، و٩,٣ ٪ لامهاتهم، و ٣٦,٥ ٪ لافراد من عوائلهم. وقد أزدادت هذه المؤشرات كثيراً عقب الحرب الأخيرة في عام ,٢٠٠٣

وكان تقرير، أعده فريق من الخبراء الحقوقيين وإختصاصيي الصحة العامة من جامعة هارفارد، صدر في تشرين الأول ١٩٩١، أي بعد ٧ أشهر على إنتهاء حرب الخليج الثانية، كشف بان الأطفال العراقيين يشبهون الناجين من قنبلة هيروشيما، ويتصفون بالخمول ويفتقرون الى الإحساس.وقد علق البرفسور الدكتور ماغن راوندالن- مدير برنامج بحوث الأطفال في مركز علم نفس الأزمات التابع لجامعة بيرغن بالنرويج:إن الأطفال يشبهون "الأموات الأحياء"، وإنهم " فقدوا مشاعرهم كافة، وهم لا يتمتعون بحياتهم.وإستناداً الى مجموعة من علماء نفس الطفل، ولهم خبرة عقد من الزمن في حروب أوغندا وموزمبيق والسودان، فأن الأطفال العراقيين هم " الأكثر معاناة بين أطفال الحروب، الذين تم وصفهم".وقد ظهر على ثلاثة أرباع الأطفال، الذين قابلهم أعضاء الفريق، علامات اليأس، وعبر ٤ من كل ٥ أطفال، عن الخوف من فقدان عوائلهم، ولم يكن ثلثا الأطفال يستطيعون النوم أو التركيز على نحو صحيح، وعبروا عن الشك في بقائهم على قيد الحياة الى سن البلوغ.وعلق علماء النفس آنذاك بأن "هذه معدلات عالية جداً حتى في منطقة صراع"، مستنتجين بان أغلبية أطفال العراق سيعانون مشكلات نفسية شديدة في حياتهم، وطالبوا ببذل جهود وطنية ودولية واسعة لمساعدة العدد الكبير من الأطفال المصابين بالصدمة.وعلق التقرير على هذا الجيل المنكود من الأطفال العراقيين:" إن الصدمة والفقد والأسى وغياب الآمال ومشاعر التهديد هنا، وإن ما حدث سيتكرر، وتأثير العقوبات الإقتصادية يجعلنا نتساءل:أليس هؤلاء الأطفال الأكثر معاناة في العالم؟"

Public Health in Iraq after Gulf War, Harvard Study Team Repor,May 1992

الى هذا أكد الدكتور ماجد الياسري- أستاذ الأمراض النفسية في العراق- ان نسبة المواطنين في العراق، الذين طالتهم الأمراض النفسية والعقلية بعد حرب الخليج الثانية، قد إرتفعت بشكل كبير، وكان يعاني نحو ٥٠ ٪ من العراقيين من إغتراب، وقلق، وتوتر، وفقدان الذاكرة، وهيستيريا، وبارانويا، وغيرها ("بغداد"، ٤/ ١٠/ ١٩٩٦).وذات الحقيقة أكدها مختصون آخرون، وأكدت مجلة " ألف باء"، في العدد ١٤٥١، انتشار الأمراض النفسية والعقلية، وقالت:"إنها أمراض تتكرر أمامنا بشكل متزايد، ففي الشوارع نرى كثيراً ممن أصيبوا بلوثة في عقولهم، وتصرفات كثيرة غريبة لا تدل إلا على الإنهيار النفسي والأمراض العصبية". وأشار تقرير للصليب الأحمر الدولي الى أن أعداد الناس الذي يبحثون عن العلاج من الأمراض النفسية والعقلية في العراق قفز من ٢٠٠ ألف في عام ١٩٩٠ إلى ٥١٠ آلاف عام ,١٩٩٨ ونقلت "الف باء" عن أخصائي الأمراض النفسية الدكتور أحمد شاكر العاني قوله: لم يواجه مجتمعنا من قبل الأمراض النفسية بهذه الكثرة وهذا الإنتشار، وتكاد تكون أمراض الانفصام، والاكتئاب، والقلق، أهم الأمراض المنتشرة.. وحتى الزيادة في جنوح الأحداث، التي بلغت ٢١٧ ٪ لعام ١٩٩٨ قياساً لعام ١٩٩٠- طبقاً لآخر أرقام رسمية أعلنت آنذاك. وقال طبيب أخصائي بالأمراض النفسية في مستشفى اليرموك،أحجم عن ذكر إسمه: لمسنا من خلال عملنا بالمستشفى محاولات إنتحار كثيرة بسبب تردي الأوضاع العامة..

وكانت محنة الأطفال الصغار صارخة. فقد أفادت السيدة سناء فرنسيس- مديرة مشروع الرعاية النفسية للأطفال آنذاك، بان الغالبية العظمى من الأطفال العراقيين يعانون من مشكلات نفسية كبيرة وخطيرة، مما أثر سلباً على إستيعابهم لدروسهم، وبالتالي على مستواهم الدراسي ("ألف باء"،العدد ١٤٥١). وقبل ذلك نبه الباحث جيف سيمونز الى إرتفاع حالات السلوك العدواني وسط التلاميذ من ٢٤ ٪ عام ١٩٨٩ الى ٦٠ ٪ في عام ,١٩٩٣ Geof Simons,The Scourging of Iraq: Sanctions, Law and Natural Justice, London, MacMillan Press,Second edition,1998

وقد حذر تقرير لممثل وكالة إنسانية دولية عملت في العراق من إن المستقبل قاتم بالنسبة للأطفال الذين ينمون في ظل العقوبات، فهم يحصلون على تعليم محدود، وفاتتهم ثورة المعلوماتية، فيما يبدأ الكثير منهم العمل اعتبارا من عمر الثانية عشر عاماً.ونبه هآنز فون سبونيك- المنسق السابق لبرنامج الأمم المتحدة الإنساني- في تقرير له الى ان الوضع القائم في العراق سوف يؤدي إلى ظهور جيل من الشباب أكثر تطرفا وعنفا من أي وضع سابق معروف، فهؤلاء الشباب يشعرون بالمرارة والغضب، ويحسون أن العالم كله قد تخلى عنهم (الأضرار النفسية والسلوكية للحصار على العراق،" الجزيرة نت"، ١٢/ ١٢/ ٢٠٠٠ .

وإقتراناً بتفشي ظواهر الرشوة والفساد والإفساد وبيوت الدعارة،إنتشرت ظاهرة الإدمان على المخدرات، وطالت الشباب وحتى الصبيان.وقد أكد الدكتور هاشم حميد زيني- مدير مستشفى إبن رشد لمعالجة الإدمان، بان ظاهرة المخدرات موجودة منذ زمن النظام السابق، لكن التكتم عليها حال دون معرفة الاخرين بتفشيها، ولاسيما في عقد التسعينيات عندما اشتدت قسوة الظرف الاقتصادي على العوائل العراقية، التي وجدت نفسها عاجزة عن تلبية متطلباتها ومتطلبات ابنائها، لذلك انحرف الكثير الى جادة العبث وتعاطي المخدورات. وأكد الباحث الدكتور حيدر عبد الرزاق المتخصص في الدراسات الاجتماعية بان الدراسات العلمية اثبتت بان الفئات التي تتعاطى المخدرات اغلبها من الشباب، وبالتالي فانها ستصبح قوة معطلة وعبئا على الاقتصاد الوطني وعلى المجتمع برمته ("الصباح"، ٧/ ١٠/ ٢٠٠٤).وكانت دراسة عراقية أشارت الى إرتفاع نسبة المتعاطين للأقراص المخدرة في أطراف بغداد وعدد من المحافظات الى ١١,٣ ٪ في عام ,١٩٩٩ وبينت بأن إدمان الأحداث والشباب أدى الى تفاقم جرائم القتل والسرقة والإغتصاب والسطو المسلح والشذوذ الجنسي ("الزمان" ، ١٩/ ٧/ ٢٠٠٠).

وقد إفتضح الدور الكبير للنظام البائد في تفشي الظواهر الإجتماعية المرضية، حيث لم يكتف بما أنتجته سياساته الرعناء، ونهجه السلطوي الأهوج، من واقع حياتي تفرد ببشاعته ومأسيه، ظل يخيم كابوسه البغيض على صدور مئات الآف الأسر العراقية طيلة ثلاثة عقود،وإنما توج طغيانه بعملية "عسكرة المجتمع" برمته، خدمة لمشاريع رأس النظام وخططه العدوانية، وحفاظاً على كرسي حكمه وإمتيازاته، بالإعتماد الى مؤسسات القمع والبطش الدموي،التي لم يكف عن تشكيل المزيد منها حتى آخر يوم من تسلطه، مجنداً فيها إجبارياً حتى الأطفال،الذين دربهم على حمل السلاح، وعلى ممارسة القتل، ومنها: تشكيلات " أشبال صدام"، و "فدائيو صدام" العسكرية، التي غرست وسط الناشئة العنف، والعدوانية، والكراهية، والغطرسة، والتسلط، والهيمنة، والتعالي، والإذلال، والدوس على كرامة الآخرين، ونشرت الخوف والرعب، وعاثت في المجتمع فساداً وإجراماً، حتى أنه لم يسلم من براثنها أسر أعضائها، الذين تجسسوا وراقبوا، وأضطهدوا حتى الوالد والوالدة، خلافاً للأعراف والتقاليد، وتمزيقاً للأواصر الأسرية، وتفتيتاً لمعدن العراقي الأصيل.

بموازاة ذلك، وإقتراناً به، ونتيجة منطقية له، كان يتعاظم في المجتمع العراقي، وأمام أنظار أجهزة النظام ولاأباليتها،إن لم نقل برعايتها وتشجيعها، " جيشاً " آخرا، لا يقل ضخامة، قوامه أطفال الشوارع، من اليتامى، والمتسربين من المدارس، والمتسولين، و" العمال الضغار"، والمتعاطين للمخدرات والمهدئات والنشوق.وتفاقمت ظاهرة جنوح الأطفال، والسلوكية العدوانية، والعنف بأشكاله، وسطهم، مع تعاظم الجريمة المنظمة في المجتمع، التي كان يديرها محترفون من عصابات النظام السابق وأزلامه والمقربين إليه. هذا الواقع الإجتماعي أفرز، كنتيجة متوقعة، مشاكل عويصة في الصحة النفسية وسط الطفولة العراقية، تحولت الى معضلة طبية وإجتماعية خطيرة،كانت تتفاقم يوماً بعد آخر. حيال هذا الواقع أعلن بوليام فينكينفيردر - مساعد وزير الدفاع الامريكي للشؤون الصحية- في ٢٧/ ٧/ ٢٠٠٣، أن "هناك حاجة كبيرة لخدمات الصحة العقلية في ضوء ما مر به الشعب العراقي من صدمات نفسية وعقلية". وقال: "ان العراق يحتاج بشدة لتحسين خدمات الصحة العقلية لمساعدة العراقيين علي التخلص من الرعب المزمن الذي كانوا يشعرون به في ظل حكم صدام حسين"..

حصاد الحرب والأوضاع الإستثنائية

ضاعفت الحرب الأخيرة وآثارها النفسية المدمرة من مستويات المعضلة النفسية والعقلية،التي كانت سائدة في العراق عشية الحرب، مسببة إزدياد أعداد العراقيين الذين يعانون من حالات الصدمة، والإنهيار، والخوف، والقلق، والإكتئاب الشديد، والضغط النفسي، والكوابيس، والتبول اللاإرادي، وغيرها، أضعاف ما كانت عليه.أكد ذلك أطباء متخصصون ووكالات إغاثة دولية، وحذروا من مغبته، ومن إحتمال أن تمتد آثاره لسنوات طويلة وسط المجتمع. وناشدوا جميع المعنيين بالمشكلة حماية الأطفال في العراق من كل ما يؤثر سلبا عليهم من الناحية النفسية والجسدية، منطلقين من وخامة تداعيات الصدمة والأزمة النفسية، التي يصاب الأطفال بها أثناء الحرب،والتي ستؤثر على نموهم، وتنعكس على شخصيتهم وسلوكيتهم وتدوم لفترات طويلة، ومن نتائجها جنوح الأطفال،والسلوكية العدوانية، والعنف، وإنتشار الجرائم، وما الى ذلك..

ولعل الأدهى، وهو ما زاد الطين بلة، ان الحرب الأمريكية على العراق في عام ٢٠٠٣، والآلة الحربية الرهيبة، التي إستخدمت خلالها، وتميزت بدمارها الهائل وفتكها الرهيب، وبما تركته من مشاهد وذكريات وآثار مأساوية لا تنسى، لم تضع، بعد كل التضحيات والخسائر، حداً نهائياً لمآسي الشعب العراقي ولم تخلصه من دوامة الصدمات والتوترات والخوف والرعب، ولبقية أسباب وعوامل الإضطرابات النفسية والأمراض العقلية، مع أن خيار الحرب خلص العراق من أعتى نظام للرعب والقتل والمقابر الجماعية..

في الواقع أن الحالات المرضية المذكورة تفاقمت أكثر أيام الحرب وبعدها،حتى يومنا هذا، في ظل التخبط المشين للقوات المحتلة، وضعف قوات حفظ الأمن العراقية، وعدم ردع المجرمين.وكل هذا شجع إستمرار العبث بأمن المواطنين، وتصاعد العمليات الإرهابية، وإستشراء العنف وجرائم القتل الجماعي، عبر القصف العشوائي، والتفجيرات، والعمليات الإنتحارية،التي نشرت الخوف والرعب الى جانب الموت، وأصبح ضحيتها الأولى الأطفال والنساء. ولا أدل على ذلك من مجزرة حي العامل التي حصلت ظهر يوم الخميس الموافق ٣٠/ ٩/ ٢٠٠٤،وراح ضحيتها ٣٤ طفلاً،الى جانب العديد من النساء والمدنيين الأبرياء، وكانت أبلغ شاهد على همجية ووحشية مقترفيها. وإقتراناً بتصاعد عمليات السطو المسلح، والسلب، وخطف الأطفال، ومطالبة ذويهم بفدية يعجزون عن دفعها، فيذبحونهم، بعد أن يروعونهم وذويهم، شهد الدوام في المدارس لهذا العام غياب أكثر من ٥٠ ٪ من مجموع التلاميذ ولم يلتحقوا لليوم، لخوف العوائل على سلامة أطفالها..

وعود كثيرة.. لم تنفذ

لقد وعدت سلطة الإحتلال، على لسان مساعد وزير الدفاع الامريكي للشؤون الصحية وليام فينكينفيردر، بأن تشكل الاهداف، التي تم تحديدها لنظام الرعاية الصحية العراقي، تحسين صحة الام والطفل، بالاضافة الي خدمات الصحة العقلية في البلاد. ولم تحقق شيئاً من هذا. ووعدت بتمويل مشروع لاعادة تأهيل المعاقين وإنشاء مركز للطب النفسي في بغداد يعالج ضحايا التعذيب. ورحلت ولم تنفذ وعدها. كما ولم تف بالوعود التي قطعتها للمساهمة في معالجة الأضرار النفسية للحرب والإحتلال، وكانت ملزمة بمعالجتها بموجب إتفاقات جنيف لعام ١٩٤٩، وضربت عرض الحائط بتحذيرات المنظمات الدولية المعنية، ومنها المنظمة الدولية "أطفال ضحايا الحروب" في لندن، التي حذرت من" كارثة إنسانية لأطفال العراق،الذين يواجهون وضعاً أسوأ مما كان عليه الحال إبان العقوبات الإقتصادية، وهم يعانون من العنف ومن الأزمة المدنية والاجتماعية". وأكدت جو بيكر- مديرة المنظمة:" إن كل طفل في العراق يعاني صدمة نفسية على مستوى أو آخر"("فرانس برس"،١٣/ ٥/ ٢٠٠٤)..

الى هذا، نظم في القاهرة، في ٣٠/ ٧/ ٢٠٠٣، بدعوة من مكتب شرق المتوسط في منظمة الصحة العالمية في القاهرة، مؤتمر علمي تحت شعار "الصحة النفسية واعادة التاهيل لما بعد النزاعات"، شارك فيه نحو ٤٠ إختصاصياً عالمياً، بضمنهم خبراء عراقيون، وممثلون عن الجمعية النفسية العراقية، والجمعية العالمية للصحة النفسية، والجمعية النفسية الاميركية، والجمعية النفسية المصرية، والكلية الملكية للصحة النفسية في بريطانيا، وغيرها. بحث المؤتمر في اوضاع الصحة النفسية في العراق على ضوء عمليات التدمير والنهب التي لحقت بالمؤسسات الخاصة بمعالجة المرضى النفسانيين خلال الحرب الاخيرة. وقد إطلع المشاركون فيه على تقرير مكثف عن الاحوال السائدة في العراق لوضع الجميع في الصورة.

واشار الدكتور عبد المناف الجادري- رئيس الجمعية العلمية للصحة النفسية في العراق الى ان الفريق الصحي المرافق لقوات التحالف طلب منه بشكل غير مباشر اجراء تقييم للاحتياجات الآنية والمستقبلية لرفعه الى الجهات المعنية.وإسترشد الجادري برأي للسيدة كاثرين باو- لافين مديرة حملة "سلسلة السعادة" في حديث مع "سويس إنفو"، الى أن الأطفال هم الأكثر تأثراً بالحروب الدائرة، كما أن بصماتها تطبع على أنفسهم بآثار سلبية ومؤلمة إلى فترات طويلة من الزمن. ولأن الأمر كذلك، فإن الدعم المقدم لهم يجب أن لا يقتصر فقط على فترة الطوارئ (أي فترة التحارب ذاتها)- برأي السيدة باو-لافين- بل يجب إستمرارها بعد أن يتوقف القتال.وأشار الجادري الى ظاهرة الاطفال الذين يتنشقون الصمغ المخدر، واكد ان مدمني هذا النوع يقفون وراء معظم جرائم السلب والسرقة.

من جهته، أعلن د. حسين عبد الرزاق الجزائري- المدير الاقليمي في منظمة الصحة العالمية لمنطقة شرق المتوسط امام المؤتمر: إن هدفنا هو اعادة بناء وتعزيز خدمات ونظم الرعاية الصحية النفسية في العراق.وقال احمد محيط - مسؤول الصحة النفسية في المنظمة- ان المؤتمر يركز على اوضاع الصحة النفسية في العراق كنموذج للمعاناة التي تعيشها الشعوب جراء تعرضها لضغوط هائلة بسبب الحروب. واعرب محيط عن امله في ان تساهم هذه المبادرة في تشكيل تحالف دولي لدعم الصحة النفسية للشعب العراقي وايجاد مستوى عال من الوعي بين الاطراف المعنية من اجل حضها على اظهار المزيد من الحساسية تجاه حاجات الافراد الذين يعانون مشاكل نفسية.

وبدوره، قال جيمس سكالي- رئيس الجمعية الاميركية للاطباء النفسانيين- ان المؤتمر يشكل خطوة ايجابية اولى في رحلة الالف ميل. واضاف يجب التحرك على الفور لان نافذة الفرص لن تبقى مفتوحة الى الابد، نفكر في استراتيجية شاملة لمواجهة الامر، فهناك حاجة ماسة الى زيادة اعداد العاملين في قطاع الصحة النفسية ليس فقط في العراق بل في غالبية دول المنطقة. واجرى مقارنة بين استراليا (٢٠ مليون نسمة) والعراق (٢٢ مليون نسمة) حيث " تمتلك الاولى ٢٨٠٠ طبيباً نفسانياً و١٠٠٠ معالجاً نفسياً، بينما يوجد في العراق ١٠٠ طبيب نفساني، وليس هناك اي عيادة للعلاج النفسي ("فرانس برس"،٣٠/ ٧/ ٢٠٠٣)..

ومع ان جميع المعنيين المذكورين، وغيرهم، يدركون، وهم على دراية تامة بواقع الأوضاع الصحية والنفسية في العراق، وبما تستلزمه من إجراءات جدية وعاجلة،إلا أن الكلام والوعود الكثيرة لم تقترن سوى بأفعال بسيطة، ودون المستوى المطلوب، بينما كررت المنظمات الدولية المعنية تحذيراتها بأن أطفال العراق يواجهون كارثة إنسانية. وكان قسم العوق العقلي والنفسي في دائرة الرعاية الاجتماعية العراقية قد أعد دراسة لاستحداث معاهد جديدة في المحافظات التي تفتقر الى المعاهد المتخصصة بالمشاكل النفسية والعقلية، مثل ميسان وديالى وصلاح الدين وذي قار ودهوك والسليمانية واربيل، ضمن خطة للنهوض بعمل القسم كماً ونوعاً وحداثة، بعد توفر الامكانات المادية والفنية والزيادة الكبيرة في تخصيصات الدائرة. وقالت مديرة القسم إنتظار مهدي ان قسم العوق العقلي والنفسي يضم ١٧ معهداً، منها ٦ في بغداد و١١ معهداً في المحافظات، كما يشرف على ٥ معاهد اهلية. وهذه المعاهد لا تغطي النسبة الحقيقية للمصابين بهذه الانواع من العوق، فضلاً عن كونها تعتمد اساليب متأخرة عما وصل اليه عمل معاهد العوق في العالم(" الصباح"، ١٢/١٠ / ٢٠٠٣).

ويذكر ان العراق يفتقد الى أرقام رسمية لحالات ما بعد الصدمة من اضطرابات نفسية وعقلية، بيد أنه لا يوجد شك في انها منتشرة في أرجاء العراق- كما أكد الطبيب النفساني الدكتور ميثم الياسري، موضحاً: لقد عشنا أحداثا كثيرة حافلة بالتوتر ومسبباته..ثلاث حروب كبري منذ ١٩٨٠، وضغوط سياسية، وكذا من تعرضوا للتعذيب. وأضاف: واليوم توجد مشاكل كثيرة تهدد الحياة في الشوارع ، وذلك لإنعدام الأمن والإستقرار ("رويترز"،٢٤/ ٢/ ٢٠٠٤)

آثار تبقى لمدى طويل

أثبتت الدراسات العلمية إنتشار أمراض نفسية وعصبية وعقلية أبان الحرب وعقبها، تبدأ باعراض الخوف، والفزع، والقلق، والأرق، وعدم التركيز، وحركات لا إرادية غريبة، وتبول لارادي، وبالتالي تخلف النمو لدى الطفل، والعديد من المضاعفات، كداء السكري، وقرحة المعدة، وإرتفاع ضغط الدم، وغيرها.

ويؤكد الخبراء أنه بعد فترات طويلة على التئام الجروح العضوية لدى الاطفال والمراهقين الذين عانوا من الحروب، تبقى الصدمات النفسية شاهدا قد لا تمحوه الايام. وفي بعض الحالات تنتقل الصدمات النفسية من جيل الى آخر، من الام الى الطفل حسب ما اوضح اطباء نفسيون ومسؤولون في المجال الانساني خلال مؤتمر عقد قبل أشهر في باريس- بحسب آني هوتفوي .وتقول ليزا اوس رونغرت، من منظمة "اطباء بلا حدود" غير الحكومية، ان تصرفات الطفل "النابعة من الخوف" تنعكس على علاقته بوالدته ما يعيد صدمتها الى الواجهة. واحيانا تعود الصدمة، التي تكون مكبوتة منذ الطفولة، لتبرز خلال فترة المراهقة.وتشير الى حادثة طفل اثيوبي شاهد وهو في الرابعة مقتل والدته وشقيقه الاصغر، وعملية اذلال والده قبل قتله. ثم نقل الطفل الى فرنسا، حيث تم تبنيه، وإندمج جيداً في المجتمع الجديد، وبدا انه نسي ذلك الفصل المرعب من حياته، الى ان عاد ليشاهده في ذهنه في سن الـ ١٤ سنة- حسب ما روى كريستيان لاشال. وفجأة عادت الصدمة النفسية الى الواجهة، وبدأ المراهق غابرييل يعاني من كوابيس وتعود الى ذهنه باستمرار المشاهد المرعبة، التي عاشها قبل ١٠ سنوات. وقال الطبيب النفسي لاشال انه "كان على وشك الاقدام على الانتحار" لكن العلاج النفسي والادوية اخرجا غابرييل من وضعه الصعب وعاد ليعيش حياة طبيعية.

وأوضح لاشال، خلال المؤتمر الـ١٢ للجمعية الاوروبية لعلم نفس الطفل والمراهق،الذي عقد في باريس، أن الحرب تؤدي الى تدمير الاماكن الآمنة، مثل المنزل العائلي، والى تغيير العادات الاجتماعية، وابراز العنف وعدم السيطرة على الانفعالات. ومن شأن ذلك التسبب بالخوف، والغضب، و تنمية الميل الى العنف، وفقدان القيم، او تحويرها، و"سيطرة المشاعر على الانفعالات" لدى المراهقين. واضاف ان ثلثي المرضى الشباب الـ٥٦٢ الذين يتلقون علاجا في الاراضي الفلسطينية عاشوا احداثا مأساوية و٨٠ ٪ منهم يعانون اضطرابات نفسية حادة وانهيارات عصبية. وفي كوسوفو فان ربع الاطفال كانوا ضحايا اضطرابات ناتجة عن صدمات نفسية، ويعاني ٣٨٪ منهم من القلق الشديد- بحسب دراسة اجراها فريق " اطباء بلا حدود" على مجموعة اولى من ٢٤٢ مريضا —منهم ٤٥ ٪ من الاطفال و ٢٢ ٪ من المراهقين — عولجوا في صيف ١٩٩٩ مع انتهاء التدخل العسكري لحلف شمال الاطلسي. وقال الطبيب النفساني تييري بوبيه انه بعد ١٨ شهرا سجل تحسناً ملحوظاً لدى ٦٢ ٪ من الشباب، الذين عبروا شفهيا، او عبر رسوم، او العاب، عن معاناتهم. لكن الاضطرابات الملحوظة او المزعجة — الخوف، او الحزن، او الكوابيس، او القلق من الفراق —كانت ما تزال تسجل لدى اكثر من ١٠٪ من الاطفال- بحسب دراسة اجريت في الاوساط المدرسية. وكانت نسبة منهم (٨,٥ ٪) تعيش، في وضح النهار، المشاهد المزعجة السابقة، في حين كان البعض الاخر يعاني من اضطرابات جسدية ذات منشأ نفسي. ومثل هذه الاعراض، لدى الطفل، تعيق عيشه ونموه، مما يؤدي الى التهميش" داخل العائلة وفي المدرسة، لكن الاهل غالبا لا يدركون ان الحرب سبب ذلك-بحسب بوبيه.